المدينة السجينة

رامي الأمين

لا تحزن، قال لي، اذهب الى طرابلس، كأنما ذهبت الى سوريا. كنت أخبره عن أسفي الكبير لأنني لم أزر سوريا في حياتي. وغالباً حينما أفصح عن أسفي هذا أمام من يعرفون سوريا كما يعرفون لبنان، أسمع جواباً مشابهاً، يضع طرابلس في مصاف المدن السورية الكبرى. وإذا كانت العمارة في طرابلس مشابهة للعمارة في حلب مثلاً، فلا شك أن حلب مدينة جميلة. مع أن صديقاً طرابلسياً فوجئ كيف أنني أجد مدينته جميلة معمارياً، وكيف أنني وصفتها حينما زرناها معاً، بأنها أجمل من وسط بيروت. بدت لي طرابلس مدينة حية وحقيقية. ليس فيها أحجار مزيفة، ولا أبنية مقفلة على عتمة، ولا شرفات عارية، ليس عليها ثياب مغسولة، أو شتلة زريعة، أو عصفور في قفص. في وسط طرابلس، يعيش الناس حقاً، ولا يتظاهرون بالعيش كما يبدو لي الناس في وسط بيروت. ومع أن المدينة الشمالية مهجوسة بمشاكلها الأمنية، غارقة في شبر الإرهاب، إلا أنها رغم ذلك حية أكثر من بيروت. وناسها هم نبضها، بدمائهم ودموعهم وابتساماتهم، يصنعون إيقاعها على وقع قرع الطبول المستمر منذ سنوات في الجارة سوريا. وإذا كانت المظلات لم تعد تجدي نفعاً مع انهمار الأمطار والبراميل والأدعية المرتدة والآلهة المنهارة (بلا مظلات إنقاذ) من السماء، فوق رؤوس السوريين في سوريا، فإن المظلات لا تزال تفتح في طرابلس عند كل انهمار للمطر أو للوطن في الجارة التي كانت طرابلس جزءاً منها حتى ثلاثينيات القرن الماضي، وجرى سلخها عن سوريا وضمها الى لبنان، بعد جدل تاريخي قاس يغيب عن صفحات كتب التاريخ المدرسية، لكنه يحضر في كتاب فواز طرابلسي «تاريخ لبنان الحديث». فإميل إده قدم للخارجية الفرنسية في صيف عام 1928 مذكرة يقترح فيها أن تصير طرابلس «مدينة حرة» ـ تحت الإدارة الفرنسية، «يمنح سكانها المسيحيون الجنسية اللبنانية والمسلمون الجنسية السورية»، وذلك لضمان أكثرية مسيحية في لبنان الكبير، طبعاً «بعد منح لبنان نظام الحكم الذاتي على غرار بلاد العلويين». هذه أمور حدثت قبل أقل من مئة عام. ولا تزال باعثة على التأمل الى أيامنا هذه: الحسابات مع طرابلس لا تزال بالنسبة الى كثير من اللبنانيين طائفية وديموغرافية صرفة، يضاف إليها حسابات اقتصادية كانت حاضرة آنذاك، ولم تغب اليوم، إذ يذكر طرابلسي في كتابه أن «المصالح الاقتصادية للانتداب ومصالح بورجوازية بيروت حالت دون عودة مرفأ طرابلس الى سوريا. ذلك أن بقاء طرابلس داخل حدود «لبنان الكبير» يحدّ من خطر تهديدها مركز بيروت الاقتصادي، أما إذا أصبحت جزءاً من سوريا، فتلوح إمكانية أن تصبح المرفأ الرئيسي لسوريا على حساب مرفأ بيروت». منذ ذلك الحين، وطرابلس تبدو عالقة في «برزخ» بين لبنان وسوريا. وهو برزخ لا يقيها النار ولا يحرمها الجنة. بيد أنه في أحيان كثيرة يصير برزخاً بين نارين، ولا يعود ممكناً تجنب الاحتراق. طرابلس بهذا المعنى ليست لبنانية ولا سورية. هل هي «منطقة حرة» كما أرادها إميل إده؟ بل هي منطقة سجينة: سجينة التاريخ والجغرافيا والديموغرافيا والطائفية، وضحية التهميش الاقتصادي والاجتماعي. هي منطقة رائعة، لكن لا يسمح لها بتظهير روعتها لأنها تهدد زيف مدينة مسحوبة الروح مثل بيروت.

(تصوير **هيثم الموسوي**)

الحائط المكسور بيننا

محمود قبوط

استيقظت، ذلك الصباح، على صوت رصاص يخترق جدران عمارتنا. أطرد النعاس من عينيّ وأدخل الحمام لأحلق لحيتي. أحلقها على وقع الصوت نفسه، المتسرّب من النافذة الصغيرة. أسمع زقزقات عصافير جارتنا أم نعيم المعلّقة على حائط الشرفة، فأتخيّل ارتطامها بجوانب القفص الحديدي، كلّما رنّ الرصاص. فجأة، يختفي النور. تهتزّ الشقّة بنا... ورفّ الزجاج والمرآة التي بالكاد أرى نفسي فيها. أشعر، وكأنني في فيلم وثائقي عن الحروب العالمية التي اعتدنا مشاهدتها في المدرسة. يعود النور. أنظر إلى وجهي في المرآة التي هدأت، متسائلاً عن سرّ تلك البرودة التي لا تفارقني. فهل الرصاص في الخارج زائف؟ وهل تلك القذائف هي أصوات فقط؟ أو أننا اعتدنا، فعلاً، تلك الحياة؟

مسحت ما بقي من معجون الحلاقة، وعدت في الزمن إلى المرة الأولى التي شهدت فيها حرباً بين منطقتنا و«منطقتهم». حينذاك، كنت في الصف الثانوي الثاني، وكنت أستعد للامتحان النهائي في مدرستي البعيدة... كل البعد عن الحرب. مدرستي التي لم تكن تضمّ غيري من تلك المنطقة لارتفاع أقساطها. لم يجدوا سبباً مهمّاً لإلغاء امتحان مادة علوم الحياة، وكذلك أمّي التي كانت مصرّة على أن أذهب لأقدّم امتحاناتي. «يالله حبيبي قوم، حضّرتلّك كل تيابك والشنتة كمان»، تهمس في أذني عند الفجر. ثم تنصرف لتجهيز أشقائي، فبعد انتهاء الامتحان، سنذهب جميعنا إلى منزل جدّتي البعيد عن النزاعات كي لا نبقى تحت هول الأصوات القاسية على مسامعنا البريئة. جمعت أمي أغراضنا: الذهب والأوراق المهمة وجوازات السفر لنهرب بها من المنزل. هي مرّت بتلك التجربة قبل 20 سنة عند زواجها. تعرف كل تلك الأشياء. تعرف أنها عندما عادت إلى بيتها بعد النزوح القسري، لم تجد شيئاً من «شبكتها» أو جهاز عرسها.

جمعت كل شيء. ونعيم، ابن جارتنا، «كسر» حائطاً في المبنى، لكي نهرب مع جيراننا، قبل أن تشرق الشمس وتقف إلى جانب القناص. هربنا من الممر المستحدث، ولكننا بعد أيام عدنا إلى بيتنا من مدخل المبنى الرئيسي، بعد انتهاء جولة «الحرب». لم تستمر عودتنا طويلاً. اشتبكوا، فهربنا مجدداً من الحائط المكسور... ثم عدنا. بقينا على هذه الحال سنين عدّة، تخلّلها انفجاران في المدينة. هذه الأشياء أكسبتنا «قدرات عسكرية»، مكّنتنا في ما بعد من تمييز صوت الرصاص من المفرقعات النارية المبتهجة. صرنا نفرّق بين رصاص الجيش ورصاص شبّان الشوارع، وبين قذيفة الهاون أو أي نوع آخر... واتجاه الرصاص أيضاً، هل هو من منطقتنا أم على منطقتنا؟

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد أصبحنا مجهّزين لأي حالة طوارئ قد تحدث. قادرون على جمع كل ما نحتاج إليه للهرب من البيت. وبتنا نعرف أيضاً أين تركن «تاكسي العلقات»، ففي تلك الظروف، تنبت بسرعة قياسية مواقف سيارات الأجرة لنقل الراغبين بترك المنطقة. هذا التاكسي، هو نفسه الذي سيعيدنا إلى بيتنا في وقتٍ لاحق. غالباً ما تشتعل الاشتباكات عند المساء. ولذلك، أحرص على العودة إلى البيت باكراً. أركض في الشارع لتجنّب رصاصة قناص، إن لم أحظ بسائق تاكسي «العلقات». أصل إلى البيت، وأستغل وجودي في ليالي النزاعات في لعب الورق مع أهلي أو سرد الأخبار المضحكة التي لا تجمعنا أيام السلام على سردها.

■■■

... وأنت تقرأ هذا النص، تكاد تعتاد تلك الحياة، وقد تتشوّق لتسهر معنا في الليل وتستمع الى أحاديثنا المضحكة... فما بالك بعائلةٍ عاشت تلك السطور أكثر من 3 سنوات، ولا تزال، ولا تشعر حتى بحالة الطوارئ إلا عندما تقتحمنا وسائل الإعلام. سنبقى على تلك الحياة لو طلبت منّا طرابلس لتبقى هي على قيد الحياة.